﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور:22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

قطْعُ الإحسانِ عنِ المستحِقّين مِن خطوات الشَّيطان

هذه الآيةُ معطوفةٌ على جملة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، فقد يخفى على الإنسان أنَّ قطْعَ النَّفقة عن الَّذي خاض في عِرض عائشة من خطوات الشَّيطان، فإنَّ من كيد الشَّيطان أن يأتيَ بوسوسةٍ في صورةِ خواطر الخير؛ إذا علم أنَّ الموسوَس إليه من الَّذين يتوخَّون البرَّ والطّاعة، وأنَّه ممَّن يتعذَّر عليه ترويجُ وسوسته؛ إذا كانت مكشوفةً، فيلجأ الشَّيطان إلى الإيهام بأنَّ قطع النَّفقة عن الخائض في عِرض عائشة طاعةٌ لله ولرسوله، فقطَعَ أبو بكر النَّفقةَ عن مِسطَح، فجاءت تلك الآيةُ تحثُّه على عدم قطع النَّفقة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَأْتَلِ﴾: الهمزة واللّام وما بعدهما في المعتلِّ أصلان أحدهما: التَّقصيرُ[2]، وأحد وجوه تفسير الفعل ﴿يَأْتَلِ﴾: أنَّ صيغتَهُ (يفتعل) من أَلَوْتُ في الأمر، أي: قصَّرتُ فيه[3]، والوجه الآخَر هو من: آليتُ، أو من (الأَلْوة) أو (الألية) وهي: اليمين والحلف، فآلَى وائْتلى وتألَّى: أَقْسَمَ[4]، ومن هنا يمكنُ القول: إنَّ حقيقة الفعل هو الحلف المقتضي لتقصيرٍ في الأمر الذي يُحلفُ عليه[5]؛ "لأنَّ أكثر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 188.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ألوى).
(3) الراغب، المفردات: (ألى).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب الأصفهاني، المفردات: (ألى)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ألو).
(5) الراغب الأصفهاني، المفردات: (ألى).

استعمال الألية في الحلف على امتناع"[1]، ويكون المعنى على الوجه الأوَّل: لا يقصروا في أن يُحسنوا إليهم، وإن كانت بينهم شحناءُ لذنبٍ اقترفوه، وعلى الوجه الآخر: لا يحلفوا على ألّا يحسنوا إلى المستحِقّين للإحسان[2]، وعليه فالمراد بـ﴿وَلَا يَأۡتَلِ﴾ في الآية: لا يُقسِم، والخطاب موجَّهٌ لسَيِّدنا أبي بكر ﷺ، فيكون حَلِفُهُ تقصيرًا في حقِّ قريبه بمنعه الصَّدقة.

2) ﴿ٱلۡفَضۡلِ﴾: "الفاء والضّاد واللّام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيء"[3] عن الاقتصاد، وذلك ضربان: أحدهما المحمود، كفضل العلم والحلم[4]، ومن هذا الأصل اشتُقَّتْ كلُّ معاني الفضل: كالزّيادة في الخير، والكمال الدينيِّ، والإحسان، والتَطَوُّل، وعلوِّ القَدْر والمنزلة، ومنه الفضيلة: الدَّرجة والرِّفعة في الفضلِ[5]، والفواضل: الأيادي الجميلة[6] والمِنَّة والنِّعْمَة[7]، ووجَّه المفسِّرون معنى ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ﴾ بأنَّه الطَّولُ والصَّدَقَةُ والإِحْسانُ والدّين[8]، بَيدَ أنَّ حشد المعاني المستنبَطةِ من أصل لفظ الفضل تصدُق كلُّها على سيِّدنا أبي بكر، كالزّيادة في العلم، والخير، والحِلم عمَّن خاض في حادثة الإفك، والإحسان، والكمال الدينيِّ، والدَّرجة الرَّفيعة قدرًا ومكانةً ومنزلة، وأيادٍ جميلة، ومنَّة، ونعمة ﷺ "فثبت له الفضلُ على الإطلاق"[9].

3) ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾: (وسع) أصل يدلُّ على خلاف الضّيق والعسرِ، والوُسْعُ: جِدةُ الرَّجلِ، وغناه، وقدرةُ ذاتِ يده، وطاقته، وخيره الكثير من المال[10]، وكلُّ هذه المعاني مرادةٌ في قول الله تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ﴾.

4) ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: (قرب) أصلٌ يدلُّ على خلاف البُعد، وقَرُب الشَّيء بالضمِّ يَقرُب قُربًا: أي دنا، والقريب من يقرُب منك رحمًا، والقرابة والقربى: الدُّنوُّ في النَّسب، والقُربى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 189.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 20، والقاسمي، محاسن التأويل: 7/ 340.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) الراغب، المفردات: (فضل).
(5) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 189.
(6) ابن دريد، جمهرة اللغة: (فضل).
(7) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 472.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 31، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 102.
(9) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 171.
(10) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين، عمدة الحفاظ: (وسع)، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5169.

في الرَّحِم، وأقارب الرجل، وأقربوه: عشيرته الأدنَون[1]، فالمعنى المحوريُّ للقرب: وجود الشَّيء في الحيّز متاحًا مُهَيَّأً للتَّناول أو الوصول إليه، ومِن ذلك القرابةُ النَّسبية للاتِّصال، كأنَّهما في نَفْس الحيِّز؛ ولعلَّه أصلًا من المشاركة في البطن[2]، والقرب في الرَّحم والنَّسب هو المراد في الآية في قول الله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾.

5) ﴿وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مطَّرد، يدلُّ على خلاف الاضطراب والحركة[3]، ومنه السُّكون، والمسكينُ هو الفقيرُ الَّذي لا شَيْء لَهُ[4]، وكأنَّ انعدام حاله؛ إذ لا شيءَ عنده: مدعاةٌ لخمودِه وانعدام حركتِه، والمسكين هو الذي يُراعَى فيه معنى الذلَّة والضَّعف، فهو أشدُّ حالًا من الفقير؛ لأنَّ الفَقير هو الَّذي لَهُ شَيْء، وإن كانَ قَليلًا، والمسكين الَّذي لا شَيْء لَهُ[5]، وفي الحديث: «لَيْسَ المِسْكينُ الَّذي يَطوفُ على النّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ والتَّمرَةُ والتَّمرَتانِ، ولَكِنِ المِسْكينُ الَّذي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنيهِ، ولا يُفْطَنُ به، فيُتَصَدَّقُ عليه، ولا يَقومُ، فيَسْأَلُ النّاسَ»[6]، وفي قول النَّبي ﷺ تعليل للتَّوجيه الإلهيِّ بعدم قطع النَّفقة عن مِسْطح بن خالة سيِّدنا أبي بكر رضي الله عنه في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾.

6) ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾: الهَجْرُ والهِجْران: مفارقةُ الإنسان غيرَهُ، إمّا بالبدن، أو باللِّسان، أو بالقلب[7]، فالهاء والجيم والراء أصلان يدلُّ أحدهما على قطيعة وقطع، والهجر: ضدُّ الوصل، وهاجر القومُ من دار إلى دار: تركوا الأولى للثّانية، كما فعل المهاجرون حين هاجروا من مكَّة إلى المدينة؛ ولذلك سُمّوا بالمُهاجِرينَ، لمهاجرتهم أهلَهم وأرضَهم[8]، وهو معنى اللَّفظة في الآية الكريمة ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

7) ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾: أصلُ الصَّفْحِ: الجَنْبُ من كلِّ شيءٍ، والصَّفح: العفو، يقال: صَفَح

(1) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، والزبيدي، تاج العروس: (قرب).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (سكن).
(5) ابن دريد، الجمهرة، والجوهري، الصحاح: (سكن).
(6) البخاري، الجامع المسند الصحيح: 2/ 125.
(7) الراغب، المفردات: (هجر).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).

عنه، أي: عَفا عنه[1]، وأعرضَ عن ذنبه، كأنَّه قد ولّاه صَفْحَتَهُ وصُفْحَهُ بالضَّمِّ، أي: عرضُه وجانبُه[2]، "والصَّفْحُ: ترْكُ التَّثريب، وهو أبلغ من العفو"[3]؛ لأنَّه محوٌ لآثار الإساءة من النَّفس، وهو خاصٌّ بالمتعمَّدِ الخطأَ[4]، ومن هنا فمعنى الصَّفح في قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾: هو الإغضاء عن الجاني، والإغماض عن جنايته، والإعراض عن لومه[5].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

الآيةُ تنهى عن الحلف بقطع النَّفقة على ذوي القرابات والمساكين والمهاجرين، والكلام وإن كان عامًّا، فالمقصود به أبو بكر ﷺ حين قطع النَّفقة عن مسطح لما خاض في عرض عائشة ﷺ، فلمّا تاب مسطح؛ نزلت تلك الآية، فقال أبو بكر: أحبُّ أن يغفرَ الله لي، والله لا أنزعُ نفقتي عن مسطح أبدًا[6].

التعوّد على الإحسان لا يقطعه الغضبُ والهجران

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطف بالواو:

عطفَ النَّظمُ الكريم جملة: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ على جملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾، وهو من عطف الخاصِّ على العامِّ.

دفعُ اللهِ وساوسَ الشَّيطان عن عبادِهِ

والمقصودُ بالنَّهي في الآية أبو بكر الصِّديق، الذي أغضبه مسطح حين خاض في عرض عائشةَ، وهذا مسلكٌ من مسالك الشَّيطان في

(1) الفراهيدي، العين: (صفح).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي: (صفح).
(3) الراغب، المفردات: (صفح).
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 228، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5169.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 20، والصاوي، حاشية على الجلالين، ص: 1283.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 31.

أن يوسوسَ بإيقاع الغضب من أبي بكر لينفِّذ مرادَهُ مِن قطع النَّفقة عن مسطح، وهذا أمرٌ يطير به الشيطان فرحًا.

وتلك الوسوسةُ هي التي عُبِّرَ عنها بالخطوات في الآية السابقة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَـٰنِۚ﴾، وقطْعُ النَّفقةِ بعضٌ من تلك الخطوات، وهي داخلة فيها، فذُكِرَت فيها على سبيل العموم، ثم ذُكِرَت مرَّة أخرى على سبيل الخصوص، في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾؛ اهتمامًا بهذا الأمر، وأنَّه لا ينبغي أن يحدُث.

ثمَّ إنَّ في العطف توسُّطًا بين الكمالين: النَّهي عن اتِّباع خطوات الشيطان، والقسم على حرمان المستحقّين للعطاء[1].

بلاغةُ النَّهي بـ(لا):

تـوجيـهُ اللـهِ عبـادَهُ المؤمنين إلى أحـسـن الأخلاق

جاء النَّهيُ بـ(لا) في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾، وهذا النَّهي، وإن كان فيه طلبُ الكفِّ على وجه الإلزام - وهو تعريف النَّهي الحقيقيِّ - إلّا أنَّه يحمل معنى التَّوجيه والإرشاد، فاللهُ ﷻ يوجِّه عباده المؤمنين إلى أقوم السُّبل، وأحسن الصفات، التي بها تزكو النُّفوس، وتصفو القلوب، والتي بها يكون المسلمون قلبًا واحدًا، لا تشوبه شائبةٌ، ولا تعيبهُ عائبةٌ.

إيثارُ الفعل ﴿يَأۡتَلِ﴾ مضارعًا:

الصَّفحُ والعفو متجدِّدٌ في كلِّ زمانٍ بتجدُّدِ الأخطاء والزّلّات

جاء الفعلُ ﴿يَأۡتَلِ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ﴾ مضارعًا؛ ليدلَّ على أنَّ هذا الفعل - وهو الحلِف على قطع النَّفقة عن المسكين لشيءٍ بدَر منه - لا ينبغي أن يقِف عند مخاطب

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 35.

معيَّن، أو ينحصِرَ في زمن معيَّن، بل ينبغي ألّا يقع متجدِّدًا في كلِّ زمان، وهذا التجدُّد مفهومٌ من طبيعة المضارع.

سرُّ اختيار الإيلاء:

تـخـصـيـصُ النَّهي بالحلف المذموم؛ للحضِّ علـى دوام الإحسان

جاء النظمُ القرآنيُّ بفعل الإيلاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل مثلًا: (ولا يَحْلِفْ)؛ لأنَّ الإيلاءَ أَكْثَرُ اسْتِعْمالِهِ في الحَلِفِ على امتناعٍ[1]، ويَكونُ في الضِّرار والغَضَبِ لا في النَّفْعِ والرِّضا، ففي حَديثٍ مُنْكَرٍ ونَكيرٍ: «لا دَرَيْتَ، ولا ائْتَلَيْتَ»، والمُحَدِّثونَ يَرْوونَهُ: «لا دَرَيْتَ، ولا تَلَيْتَ»[2]، وعلى هذا الفرقِ يكون الإيلاءُ هو الأنسب للنظم؛ لأنَّ أبا بكر الصديق حلف على الامتناع من الإنفاق على مسطح بن أثاثة.

القراءات الواردة في ﴿يَأْتَلِ﴾ وبلاغتها:

الـحـلِـف على أمـر قـد يـؤدي إلى التقصير في الحقوق

قرأ أبو جعفر ﴿يَأْتَـلَّ﴾ بهمزة مفتُوحة بين التّاء واللّام مع تشديد اللّام مفتُوحةً، وهي من الألِيّة على وزن (فعيلة) من (الألوة) بفتح الهمزة وضمّها وكسرها، وهُو الحلفُ، أي: ولا يتكلّفُ الحلف، أو: لا يحلفُ أُولُو الفضل أن لا يُؤْتُوا، ودلّ على حذف (لا) خُلُوُّ الفعل من النُّون الثّقيلة؛ فإنّها تلزمُ في الإيجاب.

وقرأ الباقُون بهمزة ساكنة بين الياء والتّاء وكسر اللّام خفيفةً، إمّا من (ألوتُ)، أي: قصُرتُ، أي: ولا تقصُر، أو من (آليتُ) أي: حلفتُ يُقالُ: (آلى وأتلى وتألّى) بمعنًى، فتكُونُ القراءتان بمعنًى[3]، فمن بلاغة القراءات هنا جمعها بين الأمر ومآلاته؛ أي: ما بين نهي عن الحلِف ونهي عن التقصير في الحقوق. فلا يحلفِ المسلم على أمر تكون مآلات حلِفه التقصير في حقوق الآخرين التي أوجبه الله.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 189.
(2) البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (1374)، وابن منظور، لسان العرب: (آلى).
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 331.

سرُّ إيثارِ لفظ ﴿أُوْلُواْ﴾:

الفضلُ شأنُ أبي بكرٍ لملازمته إيّاه، وتخلُّقه به

أوثر التعبيرُ بـ﴿أُوْلُواْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، دون غيرِها كـ(ذَوو) و(أصحاب)؛ لأنَّ (أولي) تختصُّ بإضافة الأشياء المعنويَّة إليها: كالألباب، والعلم، والقربى، والأرحام، والنُّهَى، وليست المادّية، بخلاف كلمة (ذوو) فإنَّها أعمُّ استعمالًا، أمّا المُضافُ إلى (أصحاب)؛ فأشياءُ مادّيَّة، مثل: أصحاب مدين، والحِجر، والكهف، والسفينة، ونحوها.

وتُصطفى (أصحاب) حين يكون المضافُ إليه منفصلًا عن المضاف: كأصحاب الأخدود، وأصحاب القرية، أمّا ﴿أُوْلُواْ﴾؛ فتدلُّ على شدَّة المصاحبة، ولا تُستعمل إلّا فيما كان متعلِّقها متَّصلًا كُلًّا، أو جزءًا، أو كالجزء، أو كان عملًا لازمًا، أو شأنًا من شؤون الشَّخص[1]، فـ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾، أي: من كان شأنه الفضل، لملازمته إيّاه؛ وحقيقٌ بأبي بكرٍ ﷺ أنْ يكون من أهل الفضل.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلْفَضْلِ﴾:

بيانُ فضلِ أبي بكرٍ الصديق واستدعاء فضلِهِ في هذا المقام

الألفُ واللام في كلمة ﴿ٱلْفَضْلِ﴾ - من قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ - يفيدان العمومَ، وعلى هذا يكون كلُّ الفضل لأبي بكرٍ ﷺ، وأنَّه بلغ فيه مبلغًا كبيرًا، لدرجة أنَّه صار محتويًا كلَّ معاني الفضل، وأنَّ ما سواه في حكم العدم[2]، وهذا التعريفُ فيه ثناءٌ جمٌّ على أبي بكر ﷺ، وهو أقدر على استنزال صوب الكرم منه، وتوجيهه إلى عدم قطْعِ إحسانه.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 35.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 350.

سرُّ تقديمِ الفضل على السَّعة:

دوامُ العطاءِ من صفات الكرماء

لمّا كان من معاني الفضل الطَّول والجود والإحسان؛ كان تقديمُهُ في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ أولى من تقديم السَّعة الَّتي تعني الغنى، والغنى شيءٌ حسّيٌّ ماديٌّ، والفضل بمعانيه صفاتٌ نفسيَّةٌ، فالبدءُ بتلك الصفات فيها استجاشةٌ لمشاعر المنفقين، وتحريكٌ لقلوبهم بتلك الصِّفات المعنويَّة الخُلُقيَّة، التي تجعل الإنسان يطيلُ رِشاء الإحسان، ويمدُّ حبل الجود، ويبسط كفَّ الكرم.

"فإنَّه لمّا أمر أبا بكر بذلك؛ لقَّبه بأولي الفضل وأولي السَّعة ...، فلا يليق بفضلك وسعَة قلبك أن تقطع برَّك عنه بسبب ما صدر منه من الإساءة، ومعلوم أن هذا الخطاب يدلُّ على نهاية الفضلِ والعلوِّ في الدين"[1].

نكتةُ وقوعِ ﴿مِنكُمْ﴾ بين المتعاطفَين:

استنهاضُ هِمَمِ أولي الفضل

في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾ تقدَّم الجارُّ والمجرور ﴿مِنكُمْ﴾ على المعطوف ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾؛ إذ كان يجوز أن يكون التَّعبير القرآنيُّ (ولا يأتلِ أولو الفضل والسَّعة منكم)؛ إلّا أنَّ النَّظم الكريم آثر تقديم شبه الجملة، وهذا التقديم فيه تحديدٌ للمعنيِّ بالخطاب؛ لفتًا له، وإثارةً لمشاعره، واستنهاضًا لهمَّته، واستجلابًا لكرمه، وبعثًا لجوده، وهذه المعاني ملموحةٌ أيضًا من تقديم ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ﴾ على ﴿وَٱلسَّعَةِ﴾، فوُضِعَ الجار والمجرور بين صفة نفسيَّة تجيش المشاعر، وبين صفة ماديّة تثير البذل.

وجهُ عطفِ السَّعة على الفضل:

الحثُّ على دوام البذل والإنفاق شكرًا لله على آلائه الجمَّة

عُطِفَ لفظُ السَّعَةِ على لفظ الفضل في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ﴾؛ للتَّذكير بنعمة الله على المخاطَبين؛ لأنَّ الفضل والسَّعة نعمتان تستوجبانِ شكر مَن أولاهما ﷻ، ومن

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 350.

مظاهرِ شكرهما: الإنفاقُ الَّذي يدور عليه مِحوَر الآية الكريمة[1]، وهذا فيه حضٌّ شديد على دوام البذل للفقراء والمساكين.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمصدر المؤوَّل: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾:

حسنُ البذلِ تجدُّده لا انقطاعه

كان النَّظمُ حكيمًا حين آثرَ التَّعبيرَ بالمضارع الواقع بعد ﴿أَن﴾ المصدريَّة في قول الله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وهما في تأويل المصدر (الإيتاء)، آثرهما على التَّعبير بالمصدر دلالةً على صلاحيَّة التَّوجيه لكلِّ زمان ومكان، فالمضارع فيه معنى التجدُّد الَّذي يناسب البذلَ والإنفاق، اللَّذين تُراعَى فيهما صفةُ التجدُّد؛ أمّا صفةُ الدَّيمومةِ والثَّبات؛ فلا تتناسبُ مع طبيعة البذل.

ثمَّ إنَّ المقصودَ هنا هو التَّركيز على الحدث، وهو حدوثُ العطاء ووقوعه من صاحبه، وهذا يؤدّيه التَّعبيرُ بالفعل بالمضارع ﴿يُؤْتُوٓاْ﴾؛ وليس المقصودُ التَّركيزَ على معنى الحدث، وهو المصدر (الإيتاء).

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿يُؤْتُوٓاْ﴾:

من صفات الجوادِ المبذال أن يُعطيَ قبل أن يُسأل

في قول الله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ كنايةٌ عن الكرم الشَّديد، والسَّخاء، والبذل، فإنَّهم لا ينتظرون قدومَ أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله؛ ليُؤْتوهم من فضلِه، وإنَّما يبادرونهم بالذهاب إليهم، ليُزيلوا كَرْبَهُم قبل سؤالهم بالعطاء[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالإيتاء دون الإعطاء:

المالُ مِلكُ اللهِ، والإنسان إنَّما هو مستخلَفٌ فيه

آثر التعبيرُ القرآنيُّ فِعْلَ الإيتاء على فعل الإعطاء في قول الله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾، وذلك أنَّ في الإعطاء دليلَ التَّملُّك دون الإيتاء[3]، وهذا يعطي دلالة على أنَّ المال المبذول للفقراء هو مالُ الله الذي يملكه، قال تعالى: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ ءَاتَىٰكُمْۚ﴾ [النور 33]،

(1) المطعني، خصائص التعبير القرآني، ص: 274.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 35.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 86.

أمّا الإنسان؛ فهو فيه مستخلَفٌ، قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد 7]؛ لذا كان الإيتاء في هذا المقام أنسبَ.

إيثارُ ﴿أُوْلِي﴾ دون (ذَوي):

النَّفقةُ أولى بالأقربين، الأقرب فالأقرب

الغالبُ في لفظة الجمع ﴿أُوْلِي﴾ من قول الله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أن تستعملَ في القرابة المباشِرة، أي: القرابة القريبة جدًّا من الشَّخص، ومنه ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: 8]، ولعلَّه مشتقٌّ من الأوَّلِ، وهو الرُّجوع إلى الأصل[1]، أمّا (ذَوو)؛ فإنَّما تُستعمل في القرابة غير المباشرة، أي: القرابة البعيدة.

فكان النَّظمُ هنا دقيقًا حين استعمل لفظَ ﴿أُوْلُواْ﴾؛ لأنَّ مسطحَ بن أثاثةَ كان قريبًا جدًّا من أبي بكر، قيل: إنَّه كان ابنَ خالته، وقيل: كان ابنَ أخته.

بلاغةُ التَّرتيبِ بين المعطوفات:

استدرارُ قلوبِ المنفقين للبذل والعطاء

قدَّمَ النَّظمُ الحكيم موجباتِ العطف وأسبابَها في الآية الكريمة: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فبدأَ بالقرابة التي تعطِّف قلب الباذل المنفق، ثم ثنّى بصفة المسكنة التي تثير معانيَ الشَّفقة في قلوب المنفقين، ثم ختم بصفة الهجرةِ التي تثير الوازع الدينيَّ في النُّفوس، فجاء الترتيب الحكيم على نمطٍ عجيب، يتناسب مع الفكرةِ المقصودة التي يدعو إليها.

وهذه "صفاتٌ لموصوفٍ واحد، جيئ بها بطريقِ العطفِ؛ تنبيهًا على أنَّ كلًّا منها علَّةٌ مستقلَّةٌ لاستحقاقهِ الإيتاءَ، وقيل لموصوفاتٍ أُقيمتْ هي مقامَها"[2].

بلاغةُ التعريف في ﴿ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾:

استدرارُ القلوب لإنفاق بذكر موجِباته

يُلمح من كلام المفسرين أنَّ التعريفَ باللام في قول الله تعالى:

(1) الراغب، المفردات: (أول).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.

﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ قد يكونُ للعهد، وتكون تلك الصِّفات راجعةً إلى مِسطَح بن أثاثة، الذي خاض في عرض عائشة ﵂، فقد كان قريبًا لأبي بكر، وكان مسكينًا، وكان مهاجرًا ممَّن شهد بدرًا، فكلُّ تلك الصفات تنطبق عليه، ويجوز أن يكون التَّعريفُ للجنس، فهو يشمل عموم ذوي القربى والمساكين والمهاجرين، والثاني: أرجحُ توسيعًا للمعنى، ليتناول الحكمُ جميعَ الأزمنة والأمكنة.

إيثارُ الوصف بالهجرةِ في سبيل الله:

الجهادُ في سبيل الله ذروةُ سنام الإيمان

علَّةُ ذكرِ المهاجرين في سياق قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ مِسطَحَ بن أثاثة الذي خاض في حادثة الإفك كان من المهاجرين في سبيل الله، أي: المجاهدين أعداءَ الله، فكان من البدريّين الذين شهدوا بدرًا مع رسول الله ﷺ، وهذا فيه تحفيزٌ لأبي بكر إلى العفو عنهُ، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ الجهاد في سبيل الله من أعظم القربات، المقتضيةِ للتَّجاوُز عن السيّئات، وما قول الرَّسول ﷺ عنّا ببعيدٍ: «لعلَّ الله قد اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم»[1].

فإذا كان الله ﷻ قد غفر لأهل بدر، أفلا يجدُر بأبي بكر، ومن كان على مثل حالهِ أن يعفو ويصفح؟

سرُّ التَّعبير بـ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وعلَّةُ إضافتِه:

الجهادُ في سبيل الله من أعظم أبواب الدين

آثر النَّظمُ الكريم السَّبيلَ دون الطَّريق في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه ليس كلُّ طريقٍ سبيلًا، فالسَّبيل يُطلق على ما وضَح من الطريق، أو الطَّريق الذي فيه سهولة[2]،

(1) مسلم بن حجاج، صحيح مسلم: 4/ 1941.
(2) الراغب، المفردات: (سبل).

"واستعمال السَّبيل في الجهاد أكثر؛ لأنَّه السَّبيلُ الذي يُقاتَل فيه على عَقْدِ الدين"[1].

فالسَّبيل بهذا المعنى يمتاز عن الطَّريق، وضوعف امتيازُهُ بإضافته إلى اسم الله ﷻ، فحَظي بتعظيمٍ وتكريم.

بلاغةُ حذفِ مفعولِ ﴿يُؤْتُوٓاْ﴾ الثّاني:

حُذِفَ المفعول الثَّاني لفعل الإيتاء في قول الله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لغاية ظهورِه، أي: على ألّا يؤتوهم شيئًا[2]، ولأنَّه لا يتعلَّق بذكره غرضٌ، فهو لا يزيد المعنى شيئًا، فليس من ضمن السّياق بيانُ نوعِ المعطَى، وإنَّما المقصودُ الإيتاءُ نفسُه، مهما كان نوعُه؛ ومن بلاغةِ القرآنِ إسقاطُ ما يكون عبئًا على النَّظم.

من بلاغةِ الكلامِ العالي إسقاطُ ما يدلُّ عليه السياق

دلالةُ اللّام في: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾:

اللّام في فِعلَي العفو والصفح من قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ هي لام الأمر، وهو أمرٌ إرشاديٌّ لا وجوبيٌّ، "والجزاء من جنس العمل، فكما تغفر عن المُذنب إليك؛ نغفر لك، وكما تصفح؛ نصفح عنك"[3]، فالتَّعبيرُ إرشادٌ للعباد إلى التَّخلُّق بهاتيك الصِّفات السامية؛ لإشاعتها بين الناس؛ جلبًا للمودَّة والوئام.

الإرشادُ إلى ما يُؤمَلُ به عفوُ اللهِ ومغفرتُه

بلاغةُ عطفِ ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾:

عُطِفتْ جملةُ ﴿وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ على ما جملة ﴿وَلْيَعْفُواْ﴾ للتَّوسُّط بين كمال الاتِّصال، وكمال الانقطاع، حيث اتَّفقت الجملتان في الإنشائيَّة لفظًا ومعنًى، فالجملتان فعلان مضارعان مجزومان بلام الأمر.

وعُطِفَ الصَّفحُ على العفو؛ لأنَّ في الجمع بينهما مراعاةً للنظير،

صفاءُ النَّفسِ بعدَ المسامحةِ منتهى الخُلُقِ الحسن

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سبل).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 165.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 31.

فالعفو ترْكُ المؤاخذة، والصَّفحُ صفاءُ النَّفس من آثار الإساءة والمخاصمة[1]، فالصَّفح خُلقٌ أعلى من العفو، ففيه تصفيةُ النَّفس تمامًا ممّا يشوب، وتنقيتها من الإحَن.

بلاغةُ ذِكرِ الصَّفحِ بعدَ العفو:

العفوُ عن المسيءِ لا يتمُّ إلّا بجميل الصَّفح

الصَّفْحُ الَّذي ورَدَ فعلُهُ بعد فعل العفو في قول اللّه تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ هو تركُ التَّثريب، وهو أبلغُ من العفو، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾ [البقرة: 109]، فقد يعفو الإنسان، ولا يَصْفَحُ، وقد خصَّ اللّه تعالى الصَّفحَ بالأمر به، فقال: ﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ [الزخرف: 89]، وقال سبحانه: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85][2]، أمّا العفو؛ فهو قصدُ إزالة الذَّنب[3] والتَّجاوُزُ عَنه، وتَرْكُ العِقابِ عليه، وأَصلُه المَحْوُ والطَّمس[4].

"ولمّا كان المحو لا ينفي التذكُّر؛ قال: ﴿وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾، أي: يعرضوا عنه أصلًا ورأسًا، فلا يُخطِروه لهم على بالٍ، ليُثمِرَ ذلك الإحسانَ"[5]، فكان النَّظم دقيقًا في اختيار الصفح، حتّى لا تنعقد مطاوي القلوب على أدنى ريب.

إيثارُ فعلَي العفو والصفح مضارِعَين:

العفوُ والصَّفح يجب ألّا يخلوَ منهما مكانٌ أو زمان

الأصلُ في التَّعبير بالمضارع إفادةُ التَّجدُّد؛ ومن ثَمَّ، فإنَّ المضارع في قول اللّه تعالى: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ﴾ ينادي بالتجدُّد الاستمراريِّ، وهذا يعني: أن يكون العفو والصَّفح متجدِّدَين باقيَين ما بقيت الدُّنيا.

بلاغةُ الاستفهامِ بالهمزة: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾:

الاستفهامُ بالهمزةِ في قول اللّه تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 35.
(2) الراغب، المفردات: (صفح).
(3) الراغب، المفردات: (عفا).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عفا).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 248.

وعْـــدُ الـلـه العـافـين عـن الناس بمغفرته

ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾ إنكاريٌّ، مستعملٌ في معنى التَّحضيض على العفو والصفح[1]، ويجوز أن يكون الاستفهامُ في معنى الأمرِ، أي: أحبّوا[2]؛ إلّا أنَّ عَرضَ الأمرِ بتلك الصورة، والبعدَ عن جلَبة الأمرِ الصَّريح، فيه رُقيٌّ يُهَدهِد النفس البشريَّة، فيجعلها أذعَنَ للعفو والصفح؛ طمعًا في مغفرة الله ﷻ.

فالمتأمِّل في الاستفهام بـ﴿أَلَا﴾ في الآية: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، يجد هدوءًا في الأسلوب، وسهولةً في العبارة، ودماثة في التركيب، مع ما فيه من الإغراء المشوِّق، والوعد بالمغفرة، الذي يستنزل العفو من حنايا النفس، وهذا التَّناسب يليق بالنُّفوس المؤمنة الخصبة، التي تُنبت كل معاني الخير بتوجيه رقيق، ولفظ أنيق.

وجهُ اصطفاءِ التَّحضيضِ بـ﴿أَلَا﴾:

لـــذَّةُ الـخـطـاب تُنسي العتاب

"ولمّا كانت لذَّةُ الخطابِ تُنسي كلَّ عتاب؛ أقبل سبحانه بفضله ومنِّهِ وطوله على أولي الفضل، مرغِّبًا في أن يفعلوا بغيرِهم ما يحبّون أن يُفعَلَ بهم، مرهِّبًا من أن يشدِّد عليهم؛ إن شدَّدوا، فقال: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ﴾ يا أولي الفضل، ﴿أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ﴾، أي: الملك الأعظم ﴿لَكُمۡۚ﴾، أي: ما قصَّرتم في حقِّه"[3].

فـ﴿أَلَا﴾ من قول الله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾: أداةُ عرْضٍ وتحضيض، هدفها تهيئةُ الشعور للترغيب والعرض الجميل، ومَن الذي يغفر؟ الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾، وإنَّ السامع لهذه الكلمات يشعُر بالأمن يملأ جوانبَ نفسه، وبالمغفرة تمحو كلَّ خطاياه، فينطلق منفقًا في السرِّ والعلانية[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 189.
(2) ابن الشجري، الآمالي: 1/ 403.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 248.
(4) المطعني، خصائص التعبير القرآني، ص: 274.

بلاغةُ الالتفات في ﴿تُحِبُّونَ﴾:

التَفتَ النَّظمُ الكريم من أسلوب الغيبة في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾ إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، والعلَّةُ من وراء هذا الالتفاتِ هي حضُّ أبي بكر الصديق ﷺ وإغراؤه على جميل العفو والصفح عن مِسطَح، ولا يخفى على العاقل بُعدُ ما بين الإغراء الخاصِّ والإغراء العامِّ، فتخصيصُ الكلام للمخاطَبين في الظاهر أبلغُ في إنجاز الوعدِ.

التَّنبيهُ على شمول العفو والصفح بالغيبة، وتقويةِ الوعد بالخطاب

وأوثِر التَّعبير في الإيتاء والعفو والصفح بأسلوب الغائبِ ﴿أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ﴾؛ لتحقيق العمومِ؛ ليتناول كلُّ فردٍ، مهما كان مكانه أو زمانه، وذلك لتوسيع معنى النُّصح والإرشاد للحاضر والغائب.

ولو جاء الأسلوبُ ابتداءً بالخطاب، فقيل: (ولا تأتَلوا أن تؤتوا) (ولتعفوا ولتصفحوا)؛ لانحصرَ الخطابُ في الحاضرين فقط، أو في أبي بكر الصديق، فلدفع توهُّم ذلك؛ لجأ النَّظمُ الحكيم إلى الغيبة في إسداء النُّصح والإرشاد، ليتناول جميع العباد، ثمَّ عند مجيء الوعد بالمغفرة آثرَ النَّظم الخطاب: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

دلالةُ الجمعِ في ﴿تُحِبُّونَ﴾ و﴿لَكُمْ﴾:

ذَكَرَ الله ﷻ أبا بكر - في قَوْله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ - بكناية الجمع على سبيل التَّعظيم[1]، وهذا يجعل أبا بكر يُسارِع في صفحه وعفوه عن مسطح، ولذلك لمّا سمع هذا التحضيضَ المغلَّف بالتعظيم؛ قال مجيبًا الاستفهامَ الإنكاريَّ: (بلى يا رب)، وفي الخطاب بالجمع إشارةٌ أيضًا إلى أنَّه - وإن كان أبو بكر المقصودَ

الصَّديقُ ومن على نهجِهِ يُسارعون لتنفيذ أمر ربِّهم، ليكونوا أهلًا للمغفرة وعلوِّ المنزلة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 351.

الأوَّل من الخطاب - يعمُّ الناسَ جميعًا، فالعبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب.

إيثارُ فعلِ الغفران مضارعًا:

يُستنبط من دلالة المضارع في قول الله تعالى: ﴿أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أنَّ الله ﷻ ضَمِن لأبي بكر رضي الله عنه - ولكلِّ من عفا وصفح مثلُه - محوَ ذنوبه في مستقبل أيّامه[1]، وهذا تكريمٌ ما بعده تكريم.

إبـــراز منـاقـبِ الـصـدّيـق رضي الله عنه وحضُّ مَن بعدَهُ على الاقتداء به

دلالةُ عطف ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بالواو:

عُطِفَت جملةُ ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على جملة: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾؛ زيادةً في التَّرغيب في العفو والصفح، وتطمينًا لنفس أبي بكر في حِنْثِه، وتنبيهًا على الأمر بالتخلُّق بصفات الله تعالى[2].

الـتَّرغـيـبُ في العفو

نكتةُ الاتِّصاف بـ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

لمّا كان السّياق توجيهًا لأبي بكر إلى العفو عن مسطح، الذي خاض في عِرض عائشةَ رضوان الله عليهم، كان الأنسبُ اختيارَ تلك الصِّفتين ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، لأنَّ أصلَ الغفر التغطية والسَّتر، يقال: غفر الله ذنوبَه، أي: سترها[3]؛ فكأنَّ دلالةَ الكلمة تستحثُّ أبا بكر ومن كان على صفته، على سَتر عيوب المسيء وتغطيتها، والتَّجاوز عنها، وأمّا الرحمةُ؛ فهي مقتَضيةٌ للإحسان إلى المرحوم، وللإنعامِ عليه والإفضال[4]، فكأنَّ تلك الصِّفةَ هي الأخرى تنادي بالإحسان إلى المذنب والرحمة به؛ ليستحقَّ إحسان الله إليه ورحمته.

الـــجـــزاءُ مـن جنس العمل

ومجيءُ الصفتين على صيغتَي (فَعول) و(فَعيل) للمبالغة في المغفرةِ والرحمةِ من الله ﷻ، وتلكم المبالغةُ تكون دافعةً للإنسان نحوَ الصفح، وفيها ترغيبٌ عظيم في العفو، ووعد الكريم بمقابلتِه.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 351.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 18.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(4) الراغب، المفردات: (رحم).

بلاغةُ التَّذييلِ في قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

من بلاغة التذييل بقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أنَّه جاء مرغِّبًا لفكرة العفو والصفح من قوله سبحانه: ﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾، فعرض الفِكرة ابتداءً، ثمَّ جاء التذييل ليزيِّنها في النُّفوس، ويستميلَ القلوب نحوها، والتَّذييل يكون بعرْضِ الأفكار المقصودة بالذّات أوَّلًا، وإتباعها بما يزيِّنُها، ويجعلها مقبولةً.

العفوُّ الغفور يوجِّه عبادَهُ إلى العفو والصفح

بلاغةُ ردِّ العجز على الصَّدر:

في قول الله تعالى: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بديعُ رَدِّ العجز على الصَّدر[1]، حيث وافقَ قولُه: ﴿وَٱللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قولَه: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ﴾، فكانت هذه الجملةُ تصديرًا للتذييل، ومهمازًا إليه، ودالَّة عليه، وهذا اللون البديعيُّ يُعطي للكلام قوَّة وتوكيدًا وتماسكًا، حيث يمسك أوَّلُه بآخره، وآخرُه بأوَّله، ويُعطي للمعنى قَبولًا في النُّفوس، فيجعلها تقبل على ما يُنالُ به مغفرة الله ورحمته.

النَّظمُ القرآنيُّ متماسكٌ في مبانيه، بليغٌ في معانيه

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السبيل والطريق:

السَّبيلُ هو الطريق، إلّا أنَّ السَّبيلَ أغلب وقوعًا في الخير، ولا يكاد اسمُ الطَّريق يُراد به الخيرُ، إلّا مقرونًا بوصف أو إضافة تخلِّصه لذلك، كَقَوْلِه: ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾ [الأحقاف 30][2]، وأيضًا فإنَّ السَّبيل هو "الطَّريق الَّتي فيها سهولَة، فهو أَخصُّ"[3]، فلمّا كان السَّبيل كذلك؛ كان الأولى بالاختيار في سياق

السَّبيلُ أسهلُ سلوكًا من الطَّريق، وأغلبُ استعمالًا في الخير

(1) هو موافقة آخر الكلام لأوَّله، أو لكلمة في أي موضع، يُنظر: ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير، ص: 116.

(2) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 2/ 364.

(3) الراغب الأصفهاني، المفردات: (طرق).

قول الله تعالى: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه يُطلق على الجهاد في سبيل الله، واستمدَّ خيريَّته من إضافته إلى الله ﷻ.

العفو والصفح والغفران:

إزالـةُ أثرِ الذَّنب من النَّفس قمَّة التَّسامح

العَفْوُ التَّجافي عن الذَّنب[1]، فكلُّ مَنِ اسْتحقَّ عُقوبَةً، فتركْتَها؛ فقد عفوتَ عَنهُ، وهو مَأْخوذ من قَوْلهم: عفتِ الرّياحُ الآثارَ؛ إذا درسَتْها ومحَتْها[2].

والصَّفْحُ: العرْضُ والجَنْبُ من كلِّ شيءٍ[3]، والصَّفْحُ: ترْكُ التَّثريب، فهو أبلغ من العفو، ولذلك قال تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: 109]، وقد يعفو الإنسانُ، ولا يَصْفَحُ[4].

ومن الفروق بينهما: أنَّ "العفو عمَّن قصد الجناية عمدًا كان أو خطأً، والصَّفحُ بالمتعمَّد، بدليل قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة:43]، فإذا شككت في تعدّي رجلٍ عليك، ثم تركْتَه؛ فهذا عفو، وإذا تحقَّقت ذلك، ثم تركته؛ فهذا صفحٌ"[5].

ومن الفروق بين العفو والصفح أيضًا: أنَّ العفوَ هو عدم جزاء السيئة بمثلها، ودفعُ السيئة بالحسنة، والصَّفح هو محو آثار الإساءة من النفس[6].

والغَفْرُ: التَّغْطيَةُ والسَّتْرُ، يُقال: غَفَرَ الله ذُنوبَهُ، أَي: سَتَرَها[7].

فمن خلال هذا التَّتَبُّع يظهر تقارب معاني هذه النظائر، إلّا أنَّ الغفر أبلغُ من العفو، ففيهِ ما في العفو من سترٍ وإزالة ومحو، إلّا

(1) الراغب، المفردات: (عفا).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (عفا).
(3) الفراهيدي، العين: (صفح).
(4) الراغب، المفردات: (صفح).
(5) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 228.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5169.
(7) الراغب المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غفر).

أنَّ فيه معنى الصيانة والغسل من الدنس، وهذا ليس موجودًا في مادة العفوِ، والصَّفحُ أبلغ منهما، إذ فيه نسيان الذنب والإعراض عنه، كأنَّه أعطاه صفحةَ وجهه، أو صفحة جنبه، وعلى هذا يكون العفوُ تركَ المؤاخذةِ بالذَّنب، والغفرُ سَترًا، والصَّفحُ إزالةَ أثرهِ من النَّفس[1]، فالجمعُ بين اللَّفظين في سياق الآيةِ مقصودٌ ليجمع معنيَي: تركِ المؤاخذة، ومحوِ آثار الإساءة من النَّفس، سواء وقعت عن غير قصد أم تعمُّدًا.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/ 71.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»